

فن به ساعدة

ماذا نعرف عنه ؟

بقلم ميشيل سليم كسيد

وافصح من قس ، واجرى من الذي

بذي القيل ، من خذآن اصبح خادرا
(اعشى قيس)

اسقف نجران ، وفياحوف العرب ، وشاعرها ، وخطيبها ، وحليها ،
وحكيمها ، وحكمها ، قُضرب بِحِكْمَتِهِ الامثال ، وتكشف به الاهوال !
صفات والقاب ضخمة نفضها بها الرواة ، واحاطواها باسمه هالة ! ولم يذكره
الأجلاء بالتبجيل ، مزداناً بالتكريم ، عاداً بالمعظيم !!

الرجل

نسبه - شيء عن عمره

هو قس بن ساعدة ، بن عمرو ، بن عدي ، بن مالك ، بن ابدعان ، بن
اياذ ، اسقف نجران ، لا يعرف وقت مولده ، وقد زعموا انه ولد في زمن
الرسول ، وانه عذر البتانة او السبعائة عام . وفي هذا من الخاطئ شيء كثير ،
تنبه عنه الاسماع ، ويلفظه الصدق ، ويأباه العقل .

وقد زعم عنه الرواة اشياء على هذا النحو ، ومع ان فيها الكثير من
المبالغات ، فهي تُرشدنا على الاقل ، الى تلك الحرمة التي كانت له في نفوس
الاعراب ، حتى دعمهم الى تكريمه ، باختلاف الروايات عنه ، والتحدث بامثال
هذه المبالغات والترهات .

والآن ، قبل ان تبسط في مدارج الحديث عن شاعرنا ، وسرد لطائف اخباره ، وعاسن اشعاره ، يمدد بنا ان تقف هنيهة ، ونبحث قليلاً فيما اورد له من شعر ، وما نفع به من خطب ، لعل في ذلك فائدة تجنى .

به الالهال في خطبه وسمره

دعنا نسال ، أقر قائل هذه الخطب التي ذكرها الرواة وتناشدها الركبان ؟ ام ان ايدي التحريف والاتحال ، امتدت اليها بسوء فبثت بحاسنها ، وافسدتها في بعض نواحيها ؟ امام هذا السؤال نقف وزدد ان ليس كل ما هو موجود لدينا قس ، ولو بحث الآن من مرقدته ، لرفض الكثير منه . وظننا ان ما قاله حقيقة قد اغتالت يد البث اكثره ، وحوّرت الباقي ، فان بعض المختلقين من الرواة ، الذين ضرب الله على عقولهم ستاراً كثيفاً مظلماً ، تلاعبوا في اشعاره وخطبه ، وزادوا وحرفوا كما دعتهم . وقد بلغهم ما لقس من السعة الطيبة الذكية ، التي كانت له في بطون بلاد العرب وافخاذها ، فاستغلوها كثرأ ثميناً ، وابتغوا الاستفادة منها ، فاختلقوا بعض خطب ، اوسموها ذكر الله والفتاء ، والنميم . والجحيم ، ونسبوها اليه ، وظلّوها باسمه . فنحن لا نؤمن ببعض من خطب قس بل باكثر ما نعرف له ، لما نراه فيها من التكلف ، وارتجاج الرواية ، ومحاولة التقريب بينها وبين القرآن والاصول الاسلامية ؛ ولكننا لا نجد بأساً ، اذا تعرضنا لما لدينا منها ، متسوية له ، وسرنا بينها في حدائق الرود والاشواك ، واقتطفنا بعض ما يصادفنا في طريقنا :

قس والآخرة

تب كلها وباطلة هي ! والموت هو الحياة !
 كثير هم الشعراء الذين اتخذوا فكرة الموت خدناً ، وذكرى الآخرة رفيقاً وسيراً يؤنسهم وقت الوحدة ، وييمث في تلك النفوس الحساسة زهداً وتقشفاً ورذلاً لحياة كلها آلام وشقاء . كيف لا ! والموت رفيق الوجود ، ومصير الاجسام ! والآخرة مأمن النفوس ، ومصير الارواح !
 الموت غاية ، والحياة اسقام ! علم هذا قس وايقن بصيرورته الى الفتاء ،

فترهد ، ونعم ما صار اليه ا وغلب عليه النسك ولزمه فتقتر وسكن البادية .
 ونتج عن ذلك ان تغلبت على شعره الكأبة ، ووست خطبه بالحض على ترك
 الدنيا ، والحث على اقتناء الآخرة والترهد ، ولم يكن في اقواله باث الى
 الشك ولا داعي اليه ، ولم يسلك ملك المعري في ذلك ، بل وقف بعيداً عن
 الشك في الحياة والآخرة ، الذي كثيراً ما يذهب باصطابه الى التطرف ،
 فالكثر غالباً ، وهو شر الامور . ولكن دعواه كانت دائماً على وتيرة واحدة
 اي طلب الخالد ، واحتقار العالم . فن خطبة تنسب اليه عن لسان ابي بكر ،
 قوله :

« ابا الناس ! اسموا وعرا ، واذا وعيم فانتفوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ،
 وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وارزاق واقوات ، واباء وامهات ، واحياء واموات ،
 وجمع رتات ، وآيات بعد آيات ألا ان يبلغ المقات السير في الذلوات ، والنظر الى
 محل الاموات ، ان في الهاء لعرا ، وان في الارض لبعرا ! »
 ثم ينتهي بان الله من يجب عبادة « وانه هو المبود » .

فقس يرشد على القتل في مجته عمأ وراء الموت ، متيقناً ان « الموت باب
 وكل الناس تدخله » لذا يحض على الاكتمال للآخرة . من خطبة له يمدح فيها
 الناس سوء النقلب ، ويرشدهم سواء السبل ، قال :

« ابا الناس ! شارفوا بابصاركم في كمر المديدين ، ثم ارجعوا كلية عن بلوغ الامل ، فان
 الماضي عظة للباقي . ولا تجملوا الفرور بيل الفخر ، فتقطع حججكم في موقف الله صانلكم فيه .
 ومعايبكم على ما اسلفتم . ابا الناس ! امس شامد فاحذرره ، واليوم مؤدب فاعرفوه ، وغداً
 رسول فاكرموه ، وكونوا على حذر من هجوم القدر ، فان اعمالكم تطلق ابدانكم ، والصراف
 ميدان يكثر فيه النار ، فالسالم ناج والنابر في النار » (١) !

حقاً ان الماضي عظة للباقي « ا فان صدق صاحب التذكرة الحمدونية ،
 وكانت هذه لقس ، فمهي دون شك احسن ما تفوه به فاه . بيد اننا في
 شك منها اذ نرى عليها محبة غير جاهلية ، تدفعنا الى الشك ؛ لاسيا ونحن في
 زمن نرى فيه مخبآت « جاهلية » تظهر للوجود من بين طيات اكفانها من

(١) راجع هذه المطبة في « النصرانية وآداجا بين عرب الجاهلية » للدسوف عليه الاب
 لوبس شيخو اليسوي ، صفحة ٣٢٨ ، وجدها الاب في التذكرة الحمدونية (نسخة باريس
 المطبوعة من ١٨٤٣)

المخطوطات . . . وكم لا يزال من مخطوط مخبئ ، قد يقذفنا يوماً ما ، باشتات
«جاهلية» ؟

لم يتوسع قس في وصف ما بعد النناء ، ولعل بين ما قد من آثاره ما
رمز الى هذا - فان ما بيدنا لا يشير إلى ذلك قط ، فالخطبة التي اوردناها منذ
هنية ، بها تلميح في اقتضاب ليس به ارواء للليل او شفاء للليل ، في حين
ان امية بن ابي الصلت ، الايادي ايضاً ، ومن معاصريه ، قد اتجه بهجه في
ذكرى الآخرة ، لكنه تبسط اكثر منه في وصف ما وراء الموت ، في الابدية
اذ يقول :

فكل ممر لا بد يوماً وذو دنيا ، يصير الى زوال !
ويبقى بعد جدك ، ويبي سوى الباقي المقدس ، ذي الجلال
وسيق المجرمون ، وم امرأة الى ذات القامع ، والشكال
فنادوا : ويلنا ، ويلنا عطيماً ! وعجوا في سلاسل الطوال
فلبوا ميتين ، فيترعوا وكلهم بمر النار ، صال
وحل المتون ، بدار صدق وعيش ناعم ، تحت الظلال
لم ما يشنون ، وما غنوا من الافراح فيها ، والكال ؟ !

هنا اتى امية على ذكر الموت فوصف عقاب الخطاة وزجهم في جهنم النار ،
وثراب التقاة واثابهم النعيم ، وما هنالك من عذاب وتعذيب وشقاء وافراح
وكال ونعيم ! كل هذا فات قساً ، او قل لم يصلنا منه اي شيء . لان من
المتعرب ان امرءا كقس يبلغ من الترهده اسماء ومن التقشف اعلاه ، لا يحفل
بكلمة عن الثواب والعقاب في الآخرة . ويترك كلامه على وتيرة واحدة تدعو
الى الاملال ، بل الى الضجر ، بها بلغ حاجبها من متانة اسلوب وبلاغة ؛
وأوتي من فصاحة لسان ، رتوة نازضة ، ولباقة . ولا تقدر ان نملل هذا
السكوت ، سوى بان نذهب الى ان العرب ، لم يدونوا هذه او ان ما دون
عف واندرثر كما اندثر آلاف سواه !

وبما يؤثر عن قس هذه الايات ، وهي ذات روعة وخشوع :

في السذامين الاولين ، من الترون ، لنا بوائر
لما رأيت مرارداً للموت ، ليس لها مصادر
ورأيت قومي نمرها يعني الاصاغر والاكابر

لا يرجع الماضي ، ولا يبنى من الباقيين ، غابر
ابتنت ، اني لا عما لة ، حيث صار القوم ماثرا !

صدق قس ، فالعاقلة من اتعظ بغيره ، وكان قس كما نراه اول اينسا .
يعرب ، من نظر الى الآخرة بعين الجسد ، واتخذ العقل مرشده ، والحق معقله .

الحكم في شعره

غريب هو شعر العرب ! قل ان تجد شاعراً بالعربية لم يأتيك ببعض الحكم
والامثال ! سبل عقبة تبعث الضجر والسامة ، ومع ذلك فكل ناظم في
العربية ، يزج نفسه في هذا المعترك ، ويحاول ان يأتي فيه بالمعجزات ، فكيف
يقس ، وهو الحاضر على الزهد والتأس الخلود ، فاذا ليس من العجب ان ترى
بين خطبه واشعاره بعض امثال بل كثيراً منها .

كما يؤثر عنه قوله :

«من فاته حسب نته ، لم ينمه حسب» .

«الينة على المدعي ، واليبين على من انكر» .

وابياته الحكمية التي اولها « في السذاهين الاولين » . وينفي عن الايضاح
ان نبي الاسلام سمعه في سوق عكاظ ، وكان يخطب في العرب ، على جبل
له اوردق ، وكان يؤثر عنه كلاماً كثيراً . وقد قال يوماً عنه : « رحم الله قساً ،
اني لارجو ان يبعث يوم القيامة ، امة واحدة » وذلك لما كان له من الاثر
في نفسه . ومن ذكره ومدحه ايضاً ، الاعشى ، وقد قال فيه :

وافصح من قس ، واجرى من الذي ، بذى النيل ، من خفان اصبح خادرا

ومن خطب قس المأثورة :

« اجا الاشهاد ، ابن مرد عواد ، ابن الآبا . والاجداد . ابن ذهب ابرهة ذو النصار .
وعمر ذو الازغار . هل تدرون ان ما صار اليه عبادة الفئاح . واذينة الصباح . وجدنية
الرضاح . عزوا فقبروا . ونحوا واروا . وجددوا المانع والآثار . وجدولوا الاحار . وغرسوا
الاشجار . واستخدموا الليل والنهار . فهجت الآجال . دون الامال . الا وان كل شي . الى
الزوال : ثم ائند :

قد كنت اسبح بالزمان ، ولا ارى ان الزمان ، يطيق نف جناسي
فراه اسرع في ، حتى اصبحت ييقاً ، متون عواضي ، وصفاسي
وانا الكبير ، لنبة في قومه هيات لكم قامت من ارواح
صافحت ذا جدن ، وادرك مولدي شر بن عمرو ، يتقى بالراح !

والعيل ذوبزن ، رأيت محله بالفهر ، بين جنادل ، ومناح ؟
 قسك الزمان بملك حمير فتكة نسر بكل عثية ، ومباح
 اردى ابو كرب ، وعمرو قبله ، واباد ملك اذينة الوضاح

وغدا يابرهمة النار ، فاصبحت ايامه ، ملوية الاصباح

لا نسر في شك التون ، اما ترى ايامه ، مشهورة الايضاح ؟
 لا تأمنن مكر الزمان ، فانه اردى الزمان بشر الوضاح
 برك الزمان ، على ابن ماتك عرشه ، وعلى اذينة ، سالب الانواح
 انبمد اسلاك مضوا ، من حمير يرجى التلاح ، ولات حين فلاح !
 من ذاتمانن كفه كنف الردى يثري التنى ، عن يمة الادواح !

وتما يلصق بقس ، بعض كلمات حكيمة ، زعموا انه قالها لقيصر حين وفد
 عليه مرة ، فقال له قيصر : «ما افضل العلم ؟» قال : «معرفة الرجل بنفسه» . قال :
 «فما افضل العقل ؟» قال : «وقوف المرء عند علمه» . قال : «فما افضل الادب ؟»
 قال : «استبقاء الرجل ماء وجهه» . قال : «فما افضل المروءة ؟» قال : «قلة رغبة المرء
 في اخلاف وعده» . قال : «فما افضل المال ؟» قال : «ما قضى به الحق !...»

كلمات على جانب عظيم من الحكمة والعقل ، كلمات حوت اثنان النصائح !...
 لا نظن ان قسا قائلها ، ولا شك ان العرب اتهموه بها ، لما اطلعوا على آداب
 الاغريق ، فارادوا الزعم بوجود حكيم عندهم ، يماثل ديوجينس ، في اجابة
 الرد الحكيم . ولم يجدوا مرتعاً انخصب من قس ، فالتقوا هذه ، وكفنوه بها !

نصرته

اثنان من اياد ، احدهما عظمته العرب ، والآخر رذلته إلا قليلاً ، هما
 قس بن ساعدة ، وامية بن ابي الصلت . كلاهما ذكره نبي الاسلام ، قال عن
 الاول : «يرحم الله قساً ، اني لارجو ان ييمث يوم القيامة امة واحدة» .
 وقال عن الثاني ، حين سمعه : «كاد امية ان يسلم» . ومال لسباع اقوالهما ،
 وعن كليهما اقتبس واكتب شيئاً . ولكنه اجاز شعر الاول ، ونهى عن
 الثاني . فالاول لم يكن رذل حرب ، وابتلعه الموت قبل ان يستغفر لمناجزة

النبي . ولذا أُجيزت اقواله والثاني كان فارساً مفواراً ، فشاكس النبي ،
وقاومه . فنهى عن مذاكرة اشعاره .

كلامها كان مسيحياً . امية بن ابي الصلت تزیده شواهد عدة^{١١} . وشاعرنا
اليوم ابن ساعدة ، له ايضاً منها نأني على بعضها : اولاً : كونه من اباد ، وكون
« مؤرخي الاسلام مع قلة ما كتبوا عن عرب الجزيرة في الجاهلية . . . صرحوا ،
كما بيناً سابقاً ، بنصرانية بني اباد بن تزار^{١٢} . ثانياً : كونه اسقفاً لنجران ،
وهذه بلدة مسيحية ذات دير شهيد في ذلك الزمن ، وقد طمع في قبتها ذو
نؤاس ، وهو تابع يهودي ، واستولى عليها ، وحوّلها الى كعبة لليهود ، كما
يحدثنا بذلك الاغاثي وابن الانير . . وهي التي يقول فيها الاعشى :

وكعبة نجران ، حتم عليك م حتى تنسخي بابواجا
ترور يزيداً ، ويمد المسيح وقبناً ، وم خير اربابجا

ثالثاً : وصف الجارود له حين قدم على محمد للاسلام . قال : « يلبس (قس)

المسرح ويتبع السياح ، على منهاج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقرأ بالوحدانية . »
ويكفي ان نقول ان ممن ذكروا شيئاً عن نصرانية قبيلة اباد ، كان الفارابي ،
والبكري ، وابن دريد ، وياقوت ، وغيرهم من الكتاب ، وبهم خير شاهد
واحسن تأكيد .

وفاته

تيل انه توفي حوالي سنة ٦٠٠ للسيد المسيح ، في روحين ، وهي قرب
حلب ، في حُف جبل ، حيث كان له مشهد . لميح ، يقصد للزيارة ، وتُنذر
له الندور ، وله وقف . ومن رثاه ابو جعبل الالبيري الذي زار قبره . فقال :

هذه منازل ذي الملا قس بين ساعدة ابيادي
كم عاش في الدنيا ، وم اسدى البناء من اباد !
قد نالها ، بجل البلا غة ، مفصحاً في كل ناد
قد قرّ في سطن الثرى منفرداً بين البباد !

وقد صار الى « حيث صار القوم » فرحم الله تلك النفس التقية !

(١) اطلب مثالنا : امين بن ابي الصلت : المشرق (٢٦) [١٩٢٧] (٤٩٢) .

(٢) الاب لريس شبحو : النصرانية وآداجا بين عرب الجاهلية - صفحة ١٩ .